مكارم الاخلاق (١)

يزعمون ان الحضارة تدمث الاخلاق وتهذب الآداب وتغرس في النفس فضائل غير موجودة فيها اصلا وان المدنية والعلم يرقيان عواطف القلب مثلما يرقيان شأن العقل وان التأثير في الواحد يتناول الآخر ضرورة وهو زعم لا نخاله الا فاضح الخطاء واضح البهتان بدليل ما نراه في البلاد الراقية معارج الفلاح والمتبسطة في بحبوحة المدنية والحضارة من العطل من اجل الفضائل الجوهرية للانسان والاخلاق الكريمة التي هي شرفها وحليتها ثم ما نراه مقابل ذلك في اهل البادية والشعوب البعيدة عن الحضر من مكارم الاخلاق الصحيحة الخالية من التكلف والتصنع . وعدا ذلك فان العقل والخلق شيئان مستقلان احدهما عن الاخر استقلالاً كلياً لا صلة بينهما الا قليلا فقد يتفق ان يكون الانسان وافر العقل باهر الذكاء عريقاً في المدنية الحالية ثم يكون وحشي الطباع ذميم الاخلاق لم يتناول من العلم الذي انار عقله وبدد جهله شيئاً يصلح به فاسد اخلاقه او يمدن وحشي طباعه حتى لقد يستخدم العلم الذي اتسعت به دائرة عقله الى التمكن من الشر واصابة الرماية فيه ولا شيء اشد هولاً من الشرير الذكي . نقول ذلك تمهيداً للحكاية الآتية نرويها نقلا عن احدى الجرائد الفرنسوية تفكهة لخواطر القراء وفيها على صحة قولنا اكبر برهان واجل دليل

جمع احد القواد العسكريين وبعض السيدات مجلس خاص دار فيه

(١) بقلم الكاتبة الادبية سعاد

الحديث على علاقة الحضارة بالاخلاق خصوصاً عند النساء فانبرت احداهن تفاخر بالمبلغ الذي ادركته المرأة الاوربية من الشعور الدقيق واللطف الخفي والرقة الزائدة ومزايا اخرى كثيرة صار يحق لها معها ان تسمى امرأة حقيقية وان سواها من نساء الشعوب التي لم تتوفر لديها اسباب المدنية والعلم منحطة فيها بكثير في رقة الشعور وادراك اسرار الحب وسمو العواطف ونبالة الاخلاق فلم يجب القائد على ذلك بشيء بل استأذن في ان يقص على الحضور الحكاية الآتية قال :

هناك في الجزائر نحو اواخر الحرب التي اضرمنا نارها وبعد اسر عبد القادر ببضع سنين حدثت الحادثة التي ارويها لكم فانه بعدما دانت لنا المقاطعات وانطفأت جمرة العصيان كان بعض شررها لم يزل متقداً في صدر بعض القبائل الصعبة المراس النازلة في ما وراء الجبال الوعرة مما احوجنا الى مداومة القتال ولكن على صورة المناوشات والمطاردات مع السهر المستمر والتيقظ الدائم خشية الوقوع في حبائلهم والفخاخ التي ينصبونها لنا وقد كنت اذ ذاك اقود فرقة من الرماة الافريقيين وقد عسكرت في قمة جبل وكانت الاحوال قد هدأ ثائرها واستتبت قليلا الا بعض حوادث طفيفة لا تذكر الى ان جرى ان قبض ذات يوم على امرأتين في الصحراء فجيء بهما الي وكنت احسن التكلم بالعربية فاستطلعت طلعهما وسألتهما عن حالهما وقد كنت ظننت بهما سوء الجاسوسية ونويت ان ابعث بهما الى كبار الضباط ليحاكموهما كيف شأوا اذ بادرتني احداهما وهي الصغرى على ما تبينته من القليل الظاهر من وجهها فقالت أأنت السيد الآمر انظر الى أمي هذه العجوز وهي فاقدة البصر منهوكة القوى سيئة الحال فتأملت في تلك المرأة فوجدتها حقيقة ضريرة ثم

سألت عن مقدمها فاجابتني الابنة انا اتينا من بعيد ورأينا الشمس تطلع علينا خمس مرات من حين بدأنا السير ونحن من قبيلة اولاد سعيد وقد حاربتنا قبيلة اولاد سيدي الشيخ فانتصرت علينا والنصر بيد الله يؤتيه من يشاء فاقتلعت خيامنا ونهبت مواشينا وقتلت ابي وتركتنا بلاعضد ولا نصير فقلت لامي ان الفرنسويين على ما علمت قوم كرام المنصر فلنقصدهم . تطلع الى وجهي لتتبين اذا كنت كاذبة ام صادقة . قالت هذا ثم رفعت برقعها عن محيا يشرق فيه نور جمال باهر بعينين نجلاوين تحرقان كريح السموم في الصحراء وتفضحان عيني غزال وفم يضم درراً وجبين عليه آثار الوشم دلالة انتسابها الى اصل كريم . وكان في حديثها وهيئتها من ظاهر الاخلاص ما لم يدع لي مجالا للشك والارتياب في صدق كلامها وصحة اقوالها وكنت في ذلك الحين في مقتبل العمر رقيق الاحساس شديد الشعور للنوائب فتمثلت نفسي مخلصاً لهذه الابنة التي احسنت بنا ظنها فعزمت على ان ابقيها عندنا مع امها حتى اذا استردت هذه عافيتها واستعاضت مفقود قواها ارسلتها الى اوران فنصبت لهما خيمة يقيمان بها ثم جمعت رجالي واوصيتهم بهما خيراً . وكنت كل مرة ازورهما بعد ذلك تتناول الابنة يدي وتقبلها وبذلك اتمكن من رؤية وجهها وكانت تقول لي ان الله صالح وانت كذلك اذ رحمت العجوز الضريرة وهو ما ستجزى عليه بنعيم الجنة ثم تأخذ بكلام هو سحر البيان ولا قبل لي على وصف ما كان يفعل في نفسي سماع حديث تلك الابنة ابنة الصحراء البادية وان امها ظلت على حالها من انحطاط القوى والهزال بسبب ما اصابها من البلاء المزدوج بلاء الداء والكبر وبلاء الذل بعد العز فلم يفدها العلاج شيئاً فماتت بعد ١٥ يوماً ودفنت بحفلة شائقة جداً . وان عائشة — وهو اسم الابنة —

جاءتني بعد ذلك تقول انني امتك ورقيقتك فافهمتها قدر الامكان ان لا رق عندنا وانني سانتهز اول فرصة مناسبة لابعث بها الى اوران الى من يصلح شأنها ويعتني بحالها فاجابتني انت السيد الحاكم تأمر وتنهي مثلما تشاء ولا يسعني الا طاعتك والامتثال لاشارتك ولكن ليكن بعلمك بانك اذا ابعدتني عنك فانك ترى غداً بالقرب من خيمتك بقية عظامي التي لم تأكلها السباع ووحوش القفر فتضايقت من حالتي وتولتني الحيرة والارتباك في امري اولا لان وجودها يبعث على الظنون والشبهات خصوصاً بعد موت امها ثم لاني وجدت في عيني هذه الفتاة من العزم وقوة الارادة ما لم يترك عندي شكا في فعل ماقالت . فاجلت تنفيذ ما كنت عولت عليه وهي حيلة الضعيف واتفق ان جاءتني تعليمات في تلك الاونة بتضعيف المراقبة على احدى القبائل لما بدا من مظاهر عدوانها فعولت على التقدم الى الامام قليلا لاتمكن من استطلاع حركاتها وتأديبها متى دعت الحاجة فسرنا وعائشة في معيتنا حتى اشرفنا على مضارب تلك القبيلة فاحسنوا استقبالنا على عكس ما كنا نتوقعه وجاؤنا بلبن الناقة والتمر علامة السلامة والصداقة

ولم يبد لنا شيء من حقيقة عدوانهم . وان نساء القبيلة عندما رأين المرأة العربية التي كانت بصحبتنا خرجن من الخيم واكثرن من الحفاوة والاكرام لها . وعند المساء نفخ في الصور فدخل السكل الى الخيام التي كنا ضربناها بعيدة عن خيام تلك القبيلة . وكانت السماء في تلك الليلة صافية الاديم باهرة الاشراق كانما تضاعف اشراقها وزاد ضياؤها فخرجت اروح النفس في جمال الطبيعة وبهائها وكان على يميني عوسجة تخيل لي مراراً سماع شيء اشبه بحفيف الثوب في جانبها فلم ابال لظني انه وحش من الوحوس

الهائمة على وجهها في الليل فما كان الا كلمح البرق حتى سمعت دوي طلقين ناريين ثم رأيت شبحاً ابيض سقط امامي وهو يصرخ الله اكبر ان الزعيم الذي كان محسناً الى العمياء قد نجا وعائشة تموت فرحة مسرورة فدى عنه فاقبلت عليها مسرعاً لارى حالها فما لبثت ان فاضت روحها صاعدة الى خالقها والظاهر انها كانت درت في المعسكر بالفخ الذي كانوا نصبوه لي فتبعتني وراقبتني الى ان افندتني بحياتها . وبعد ذلك دفناها الى جانب امها في ضريح كتبنا عليه (هذا ضريح من قضت شهيدة مكارم الاخلاق)

أنيس المجلس

﴿ الجزء الثالث — السنة الخامسة ﴾

﴿ الاسكندرية في ٣١ مارس (اذار) سنة ١٩٠٢ ﴾

﴿ الموافق ٢١ ذي الحجة سنة ١٣١٩ ﴾

فردوس المرأة

ما برح الناس منذ القديم وهم يدعون ان الدنيا نعيم المرأة وجحيم الرجل وذلك لما يبدو في ظاهر الامر من تعرض الرجال لجسيمات الاعمال دون النساء ومباشرتهم وحدهم اكثر اشغال الحياة الشاقة ذلك فضلا عن تحملهم اعباء النساء ومدافعتهم عنهن واحتمالهم تبعات ما يصدر منهن من الذنوب والجرائم وبذلك كانت المرأة في اعتبارهم بحكم الولد الصغير له نعيم الدنيا وهناؤها ولوالديه كدرها وشقاؤها . ولكن الحقيقة ان المرء لو نظر الى الناس كلهم لوجد الرجل والمرأة فيها سيين فاذا كان الشقاء واقعاً على قبيلة منهم كانت المرأة مساوية فيه للرجل باحتمالها اياه وشعورها به واذا كان ثم من فرق يبدو بينهما فانما يجب ان يعتبر معه مقدار القدرة على الاحتمال لان الولد الصغير اذا كان يحتمل مثلاً عشر اقات فيتعب بها والرجل يحتمل خمسين اقة